سلسلة تحرير المفاهيم المعاصرة في ميزان القرآن ومنطق البيان

تحرير مفهومَي «الهويّة» و«الهويّة الإسلامية» في ميزان القرآن ومنطق البيان

من تعريف الذات إلى شبكة الانتماء والعهد والتعارف

إعداد: الدكتور إبن عبّاس العاملي

آلة الإعداد: الذكاء المبين[1]

تمهيد

[1] **الذكاء المبين**: منصة مبنيّة على الذكاء الاصطناعي **وميزان القرآن ومنطق البيان وعلم الأصول والفقه البياني وعلم التفسير الاستِنفادي البياني.** وهذه الدراسة دراسة تجريبيّة أُعدّت بواسطة **الذكاء المبين**، وأعدّها وراجعها وحقّقها الدكتور ابن عبّاس العاملي.

ولا تزال المنصة في مرحلة الاختبار، وتهدف هذه المرحلة إلى كشف الثغرات والنواقص والأخطاء والعيوب ومواطن الضعف، ومعالجتها وتطوير المنصة حتى تصبح جاهزة للنشر والإفادة منها على نطاق عام.

ونأمل من كلّ من يطّلع على هذا البحث أن يراجعهُ مراجعة نقديّة دقيقة، وأن يزوّدنا بما يقف عليه من ملاحظات وثغراتٍ ونواقصَ وأخطاء ومواضع ضعف؛ لننتفع بها في التصحيح والتحسين، ويسهمَ بذلك في إنضاج هذا المشروع، محتسباً الأجر عند الله تعالى. لتزويدنا المراجعة النقديّة والملاحظات، نرجوكم التواصل على: ibnabbasalamili@gmail.com

يبدو السؤال عن «الهوية الإسلامية» من أكثر الأسئلة بداهة في الخطاب المعاصر:

ما الهوية الإسلامية؟ وما عناصرها؟ وما الثابت فيها وما المتغير؟
وكيف نحافظ عليها أمام العولمة والتحولات الثقافية؟
وهل يمكن أن تتعدد هويات الإنسان
من غير أن تتعرض هويته الإسلامية للذوبان؟

غير أنّ هذه الأسئلة، على أهميتها الواقعية، تبدأ من افتراض سابق يحتاج إلى تحرير:

أنها تفترض وجود مفهوم واحد معلوم الحدود يسمى «الهوية»،
ثم تطلب تحديد صورته الإسلامية.

وهنا تظهر المشكلة نفسها التي ظهرت في مفاهيم «**الحضارة**» و«**الدّولة الحديثة**» و«**المقدس**»:

قد تكون المسألة حقيقية،
بينما لا يكون الاسم الذي جمعها محايداً في طريقة ترتيبها.

فالهويّة في الاستعمالات المعاصرة ليست معنى واحداً.

- فقد يراد بها جواب الإنسان عن سؤال «**من أنا؟**»،
- وقد يراد بها انتماؤه إلى جماعة،
- وقد تعني الصفات التي تميز جماعة عن غيرها،
- وقد يراد بها استمرار الشخص عبر الزمن،
- وقد تتوسع إلى الهوية الدينية والثقافية والقومية واللغوية والسياسية والاجتماعية.

وقد أثبتت الدراسة المرجعية أنّ هذه وظائف مختلفة جُمعت تحت اسم واحد، في حين يوزع القرآن أسئلتها على شبكة من

الدين والفطرة والعهد والأمة والقوم والشعوب والقبائل والتعارف والولاية والعمل والنسب والأسرة وغيرها.

لذلك لا يكون السؤال المنهجي الأول: **ما الهوية الإسلامية في القرآن؟**

بل:

كيف يبين القرآن أصل الإنسان وانتماءاته وروابطه وعهوده وجماعته وصلته بالمختلف عنه ومعيار التفاضل بين الناس؟
ثم ما مقدار صلاحية «الهوية» اسماً جامعاً لبعض هذه المسائل؟

بهذا التحول لا نلغي مفهوم الهوية ولا ننكر الأسئلة التي يعالجها، وإنما ننقله من موقع **الحاكم على النص** إلى موقع **الأداة البحثية التي تخضع له.**

أولاً: تحرير «الهوية» من وحدتها المفترضة

أولى مشكلات المصطلح أنه يوحي بأنّ هناك شيئاً واحداً اسمه «**هوية الإنسان**» يمكن تحديده ثم البحث عن مقدار ثباته وتحوله. لكن ما يجتمع تحت الاسم في الدراسات المعاصرة متنوع.

- فـ «**من أنا؟**» سؤال عن تعريف الذات.
- و«**إلى من أنتمي؟**» سؤال عن الانتماء.
- و«**ما الذي يميز جماعتنا؟**» سؤال عن الحدود الاجتماعية والثقافية.
- و«**هل بقيت الشخص نفسه رغم تغيري؟**» سؤال عن الاستمرار الشخصي.
- و«**ما موقع ديني وقومي ولغتي وأسرتي وجنسي ووطني في تعريف نفسي؟**» سؤال عن تركيب الانتماءات.

وهذه الأسئلة قد تتقاطع، لكنها ليست سؤالاً واحداً. ولذلك قررت الدراسة المرجعية أن

«الهوية» تصلح اسماً تواصلياً في الدراسات المعاصرة إذا حُددت الوظيفة المقصودة، لكنها لا تعتمد بوصفها مفهوماً قرآنياً جامعاً.

وتزداد المسألة دقة حين تضاف صفة «الإسلامية». فقد توحي عبارة «الهوية الإسلامية» أحياناً بأن الإسلام مكوّن من مكونات هوية الفرد إلى جانب اللغة والقومية والجنس والمهنة والوطن، وكأنّ المكونات كلها تقع في رتبة واحدة ثم يختار الإنسان كيفية تركيبها.

لكن هذا الترتيب نفسه يحتاج إلى عرض على القرآن.

فليس الدِّينُ في المنظور القرآني مجرد صفة اجتماعية يخبر بها الإنسان عن نفسه، كما يخبر عن لغته أو بلدته، بل يتصل بـ

العبودية والعهد والتكليف والعمل والهداية والمآل.

ولذلك يكون اختزال الإسلام إلى «**مكوّن هوية**» تقليصاً لوظيفته قبل بدء البحث.

وفي الاتجاه المقابل لا يصح أيضاً أن تتحول «**الهوية الإسلامية**» إلى قالب اجتماعي مغلق يجعل كل ما ورثه المسلمون من لغة أو عرف أو لباس أو نظام أسري أو سياسي جزءاً ثابتاً من الدين لمجرد اقترانهِ التاريخي بهم. فالإسلام شيء، وتاريخ المسلمين شيء، وأعراف المجتمعات الإسلامية شيء آخر.

ومن هنا ينبغي الفصل بين المرجعية والانتماء والتاريخ والصورة الاجتماعية قبل السؤال عن الثبات والتغير.

ثانياً: من تعريف الذات إلى المجال القرآني للانتماء

لا يقدم القرآن لفظ «**الهوية**» بوصفه اسماً جامعاً لهذا المجال، لكن غياب الاسم لا يعني غياب الأسئلة التي أصبح الفكر الحديث يجمعها تحته. وهذه قاعدة منهجية أساسية:

عدم ورود المصطلح لا يبطل المسألة،
وإنما يمنع أن نفرض حدوده على النص
قبل الاستقراء والاستنفاد البياني القرآني.

وقد نصت الدراسة المرجعية صراحة على أنّ عدم ورود «**الهوية**» لا ينفي أسئلة الانتماء، لكنه يمنع اتخاذ الاسم مظلة قرآنية من غير تفكيك وظائفه. وعندما تُفتح المدونة من غير افتراض المصطلح السابق تظهر شبكة أوسع.

يبدأ القرآن من **وحدة الأصل الإنساني**:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء: 1).

ثم يثبت التنوع الإنساني من غير أن يحوله إلى انفصال في أصل الخلق:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (الروم: 22).

ثم يقرر وجود الشعوب والقبائل، لكنه لا يجعل وجودها غايةً في ذاته ولا معياراً للتفاضل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13).

تجمع الآية في بناء واحد أربعة أمور كثيراً ما تفصلها خطابات الهوية:

1. وحدةُ الأصل،
2. وواقعُ الاختلاف،
3. ووظيفة التعارفُ،
4. واستقلال معيار الكرامة عن مجرد الانتماء.

وهذا البناء بالغ الأهمية؛ لأنه لا يطلب محو الشعوب والقبائل حتى تتحقق الوحدة، كما لا

يجعل الشعوب والقبائل وحدات مغلقة تتحدد قيمة الإنسان بمقدار انتسابه إليها.

فالاختلاف موجود، بل إن اختلاف الألسنة والألوان آية من آيات الله. لكن الوجود الاجتماعي للفرق لا يتحول تلقائياً إلى سلم للقيمة.

وقد لخص البحث المرجعي هذه الشبكة على النحو الآتي:

نفس واحدة وذكر وأنثى، ثم اختلاف ألسنة وألوان وشعوب وقبائل،
ثم تعارف، ثم أمة وروابط وعهود،
ثم بر وقسط وتعاون أو موقف من العدوان بحسب الفعل،
ثم تقوى وعمل معياراً للقيمة، ثم شهادة ومآل.

وهذه الشبكة تقاوم الهوية المغلقة كما تقاوم إذابة الانتماءات جميعاً.

ثالثاً: ماذا يبقى من «الهوية الإسلامية»؟

إذا لم تكن «**الهوية الإسلامية**» اسماً قرآنياً جامعاً، فهل ينبغي ترك العبارة؟

ليس ذلك ضرورياً.

يمكن استعمالها في الدراسة الاجتماعية أو التربوية أو في الخطاب العام إذا كان المقصود واضحاً:

انتماء المسلم إلى دينه، أو أثر الدين في تعريفه لذاته،
أو حفظ شعائره وقيمه في بيئة مختلفة.

لكن حين ينتقل البحث من وصف الناس إلى السؤال:

كيف يبني القرآن هذا الانتماء؟

يجب تفكيك الاسم وإعادة عناصره إلى المدونة.

وتكشف المدونة أنّ الانتماء الإسلامي ليس صفة واحدة، بل بناء متعدد العلاقات.

- فيه **الدين** بوصفه جهة عبادة وهداية والتزام.
- وفيه **الصبغة**:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة: 138).

ولا يلزم من هذه الآية أن نجعل «الصبغة» مرادفاً فنياً للهوية، لكنها تكشف أن الانتماء الديني يرتبط بالله والعبودية، لا بمجرد وسم اجتماعي.

- وفيه **العهد والميثاق**، فيتحول الانتماء من وصف إلى مسؤولية ووفاء.
- وفيه **الأمة**، لا بوصفها عرقاً ولا حدوداً لغوية، بل رابطة دينية ورسالية واجتماعية ذات وظائف.
- وفيه **الأخوة** والاجتماع:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: 103).

- وفيه **الأسرة والأرحام** بما لا يذوب في الرابطة السياسية أو العقدية.
- وفيه **العمل والتقوى**؛ فلا يكفي الاسم الذي يطلقه الإنسان على نفسه إذا ناقضهُ الفعل.

وقد انتهت الدراسة السابقة إلى أنّ المدونة القرآنية في هذا الباب تشمل

الدين والملة والفطرة والعهد والميثاق والأمة والقوم والشعوب والقبائل والتعارف والأخوة والولاية والأسرة والعمل والتقوى والهجرة والبر والقسط وغيرها،

مع التنبيه إلى أنّ هذه الألفاظ ليست مترادفات لكلمة «**الهوية**».

ومن ثم فالأدقُّ أن نفهم ما يسمى «الهوية الإسلامية» بوصفه

شبكة انتماء مرجعي وعهدي وعملي،

لا بطاقة تعريف ساكنة.

وهذا التحول مهم، لأن الإنسان في القرآن لا يُسأل فقط: **إلى أي جماعة تنتسب؟** بل يُسأل أيضاً:

ماذا آمنت؟ وبماذا وفيت؟ وماذا عملت؟
وكيف تعاملت؟ وما الذي قدمت؟ وإلى أي مآل انتهيت؟

فالانتماء لا يُلغى، لكنه لا يكتفي بنفسه.

رابعاً: من ثنائية «نحن والآخر» إلى التعارف والقسط

من أكثر آثار خطاب الهوية شيوعاً بناء العلاقة بالآخر على ثنائية: «**نحن**» و«**هم**». وقد تكون الثنائية ضرورية أحياناً لبيان اختلاف الاعتقاد أو الجماعة أو المصالح، لكن تحولها إلى البنية الحاكمة لكل علاقة يحمل خطراً كبيراً:

أن يصبح الحكم على الإنسان تابعاً لهوية الجماعة قبل فعله.

ويقدم القرآن بناءً أكثر تفصيلاً. فهو يثبت الاختلاف الديني، لكنه لا يحوله إلى حكم واحد على جميع المخالفين. ويقول تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: 8).

ثم يميز مباشرة من قاتل وأخرج وظاهر على الإخراج

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: 9).

فالميزان هنا لا يقوم على مجرد اسم «الآخر»، بل يدخل فيه

الفعل والعلاقة والعدوان والقسط.

وهذه النتيجة بالغة الأهمية في تحرير الهوية الإسلامية؛ لأنها تمنع طرفين متقابلين.

- الأول أن تتحول الهوية إلى **خصومة أصلية مع كل مختلف**، بحيث يصبح الاختلاف بذاته موجباً للعداء.
- والثاني أن يمحى الاختلاف الحقيقي باسم الإنسانية المشتركة أو التعددية، فلا يبقى للدين والعهد والانتماء ولا للعدوان والولاية أثر في الحكم.

أما البناء القرآنيُّ فيحفظ وحدة الأصل والاختلاف معاً، ويحكم على العلاقة بحسب حقيقتها. وقد عدت الدراسة المرجعية آياتِ الممتحنة من أهم الموارد التشغيلية؛ لأنها تنقل الميزان من هوية الطرف وحدها إلى فعله وموقفهِ، فتجمع بين حفظ الانتماء وإمكان البر والقسط مع المخالف. وبذلك يصبح **التعارف** أكثر من شعار للتسامح. إنه وظيفة للتنوع الإنساني لا تلغي الفروق، لكنها تمنع أن تتحول الفروق إلى قيمة ذاتية أو إلى مبرر للظلم.

خامساً: هل الهوية الإسلامية ثابتة أم متغيرة؟

السؤال الشائع:

«هل الهوية الإسلامية ثابتة أم متغيرة؟»

يكشف بدوره أثر المصطلح الجامع؛ لأنه يطلب حكماً واحداً على بناء متعدد الطبقات. والأدق أن نسأل:

ما الذي نتحدث عنه حين نسأل عن الثبات والتغير؟

- إذا كان المقصود التوحيد والعبودية والمرجعية الإلهية وأصول التكليف، فليس الحديث عنها كالحديث عن اللباس أو العرف أو الصورة المؤسسية أو الأسلوب

السياسي أو اللغة التي يتكلم بها مجتمع مسلم.

- وإذا كان المقصود النسب واللسان والوطن والعادات، فهذه انتماءات ووقائع لها اعتبارها، لكنها لا تقع في رتبة الدين نفسها.
- وإذا كان المقصود المؤسسة الاجتماعية أو طريقة التعبير عن الانتماء، فهي قابلة للتحول بحسب الزمان والمكان ما دامت لا تنقض أصلاً حاكماً.

ومن ثم لا تكون الإجابة الدقيقة: «الهوية ثابتة»، ولا: «الهوية متحركة»، بل:

في البناء الذي يسميه الخطاب الحديث هويةً مراتب وعلاقات مختلفة؛
منها المرجعي، ومنها العهدي والتكليفي،
ومنها الاجتماعي والتاريخي، ومنها الوسَائلي والمتغير.

وقد أكدت الدراسات السابقة أنّ الاجتماع الإسلامي لا ينبغي تصوره قالباً صلباً؛ بل بناء تتفاعل فيه الثوابت مع المتغيرات والوظيفة مع الانتماء والقيمة مع السياسة والتعارف مع العمران.

وهذا التفكيك يحل جانباً كبيراً من الصراع التقليدي بين «**الأَصَالة**» و«**المعاصِرة**». فليس المطلوب الحفاظ على كل صورة تاريخية باسم الهوية، كما ليس المطلوب تغيير كل شيء باسم التطور.

السؤال الأدق دائماً:

ما رتبة العنصر؟ وما مصدره؟ وما وظيفته؟ وما الحكم الذي يترتب على تغييره؟

سادساً: من هوية الجماعة إلى ميزان العمل والتقوى

تتعلق أخطر مشكلات الهوية بانتقالها من **وصف الانتماء إلى الحكم على القيمة.**

قد يصبح مجرد الانتساب إلى أمة أو قوم أو مذهب أو حضارة مصدراً للاستعلاء، وكأن الاسم يمنح صاحبه قيمة قبل عمله. لكن القرآن يقيم فاصلًا واضحاً بين التكوين الاجتماعي وبين

معيار التفاضل:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13).

فالانتماء إلى شعب حقيقة اجتماعية، والانتماء إلى أمة له أحكام ووظائف، لكن الكرامة عند الله لا تستخرج من النسب وحده.

وهذه القاعدة تمنع «**الهوية الإسلامية**» نفسها من أن تتحول إلى امتياز ذاتي. فلا يصبح الإنسان مرضياً عند الله بمجرد حمله اسماً اجتماعياً أو انتسابه إلى جماعة مسلمة. يدخل الإيمان والعمل والتقوى والوفاء والقسط في الميزان.

وهنا تظهر مفارقة مركزية:

الهوية تصف من ينتسب الإنسان إليه،
أما التقوى والعمل فيكشفانِ كيف قام بما انتسب إليه.

ولهذا لا يجوز أن ينقلب اسم الجماعة إلى حصانة من النقد، ولا أن يصبح نقد فعل مسلم نقداً للإسلام، ولا أن يصبح إنجاز جماعة مسلمة قسطاً لمجرد هوية فاعلها. كما لا يصح العكس:

لا يرد الحق لأن حامله من خارج الجماعة.

وبذلك يدخل ميزان القسط إلى قلب سؤال الهوية، لا إلى العلاقة الخارجية فقط.

خاتمة

يكشف تحرير مفهومي «**الهوية**» و«**الهويّة الإسلامية**» أن المشكلة ليست في استعمال الاسمين، وإنما في جعلهما مظلة تختصر تحتها شبكة قرآنية أكثر تركيباً.

- فالقرآن لا يقدم مفهوماً واحداً اسمه «**الهوية**» يجيب وحده عن أسئلة الإنسان والجماعة والانتماء والاستمرار والاختلاف.
- ولا تختزل «الهوية الإسلامية» في تعريف الذات بأنها مسلمة.

- ولا تختزل في العرق أو اللغة أو الوطن.
- ولا في الموروث التاريخي.
- ولا في الشعور الشخصي بالانتماء.
- ولا في عضوية جماعة مغلقة.

بل تتوزع المسألة على

وحدة الأصل والفطرة والدين والعبودية والعهد والأمة والأسرة والشعوب والقبائل واختلاف الألسنة والألوان والتعارف والأخوة والولاية والبر والقسط والعمل والتقوى والشهادة والمآل.

ومن هنا يتغير السؤال من: **ما الهوية الإسلامية؟**

إلى:

كيف يبني القرآنُ علاقة الإنسان بربهِ وبنفسهِ وبأسرتهِ وأمتهِ وشعبهِ ومخالفيه، وما مراتب هذه الروابط، وما الذي يثبت منها وما الذي يتغير، وما وظيفة كل انتماء، وما ميزان الحكم عليه؟

ويتحول السؤال الثاني من: **كيف نحافظ على هويتنا أمام الآخر؟**

إلى:

ما الذي يجب الوفاء به من الدين والعهد والتكليف، وما الذي يجوز أن يتغير من الصور والأعراف، وكيف نحفظ الانتماء من غير أن يتحول إلى عصبية، ونحفظ الاختلاف من غير أن يتحول إلى ذوبان، ونقيم التعارف من غير أن نلغي الحق والقسط؟

عندئذ يمكن الإبقاء على «**الهويّة**» و «**الهويّة الإسلاميّة**» مصطلحين تواصليينِ من الدرجة

الثانية، ولا سيما في الدراسات الاجتماعية والتربوية والمقارنة، لكنهما لا يحكمان طريقة القرآن في بناء الإنسان والجماعة.\

والأدق في البناء البياني أنّ تنطلق الدراسة من **شبكة الانتماء والعهد والتعارف** بألفاظها ومراتبها القرآنية، ثم تعود إلى مفهوم الهوية لتحدّد ما أصاب فيه وما جمعه بحق وما يحتاج فيه إلى تفكيك أو تقييد.

فليس المطلوب الانتقال من «**هوية غربية**» إلى «**هوية إسلامية**» بالمفهوم نفسه، بل **تحرير السؤال ذاته:**

من تعريف الذات إلى الوفاء بالعهد،
ومن الانتماء المغلق إلى التعارف،
ومن اسم الجماعة إلى العمل والتقوى،
ومن صراع الهويات إلى ميزان الحق والقسط.

ويبقى اتجاهُ الحكم من القرآن إلى مفهوم الهوية، لا من مفهوم الهوية إلى القرآن؛ فالقرآن هو الذي يحدد ما يصح جمعه وما يجب التفريق بينه، وما يكون أصلاً وما يكون أثراً، وما يثبت وما يتغير.

وهذا هو مقتضى حاكمية القرآن المطلقة على المفاهيم.